الفرق السياسية في الاسلام

للدكتور رينولد نيكلسون

بقلم الأستاذ حسن حبشي

كانت مناهضة الأحزاب السياسية والفرق الدينية للبيت الأمويّ تعمّ الذى أخذ يقوّض دعائمه شيئاً فشيئاً ، حتى انهار ولم تقم له قائمة بعد ذلك . وسنسوق بعض التفاصيل عن الأفكار التى أدّت إلى تطاحن هذه الطوائف ، وعن العوامل التى دعتها إلى السخط على النظام القائم ، ثم نُثنّى ببضع كلمات قلائل عن الفرق الدينية وعقائدها كالمعتزلة والمرجئة والصوفية ، ثم التكلم عن أدبهم الذائع الذى كان جُلّه شعراً ، وعن حملة لوائه البارزين

كانت وجهة معارضى الأمويين سياسيةً بادئ ذى بدء ، إذ كان معنى تولى معاوية الحكم انتصار الشام على العراق ، ومن ثم أصبحت دمشق عاصمة الدولة ، وحلت محل الكوفة ، وقد لاحظ « ڤلهوزن » : « أن أشد الصيحات خطراً على بنى أمية كانت منبعثة من العراق ، فلم تكن صيحة حزب خاص بذاته ، ولكنها صدى صوت جميع العرب المقيمين هناك ، والذين اتفقوا جميعاً على استنكار ضياع استقلالهم Selbstherrlichkeit وعلى كراهية أولئك الذين آل إليهم الأمر[1] » . وفى هذا الوقت نفسه اصطبغت هذه المشاعر بروح دينية ، واتخذت من الدين عوناً لها ، وسقط النظام الجديد مذموماً موسوماً بسمة الشرك ، وبناء على مبلغ تقدير المسلمين لمعنى الواجب ، كان لزاماً على كل رجل حرّ عاقل أن يعمل على إزالة أسباب ذلك المنكر ، ومن بين الأحزاب العديدة التى نهضت بأعباء هذا الأمر ، يمكننا أن نتبين أربع جماعات وحّد بينها غرض مشترك ، وتعاونت فى سبيل تنفيذ فكرتها ، تلك هى :

(ا) المسلمون عامة المتمسكون بالدين ، الذى كان يتألف منهم أهل السنة[2]

(ب) الخوارج ويمكن تسميتهم « بالمتطهرين » وهم شديدو التطرف فى نزعتهم الدينية

(ح) الشيعة أو أنصار علىّ وآل بيته

(ء) الموالى : وهم المسلمون من غير العرب

ومن الجلىّ الواضح أن الفريق الأول (الذى كان دعاته وأنصاره الفقهاء وحفظة القرآن وصحابة الرسول وتابعيهم) ، كان هذا الفريق كارهاً للحكومة التى أرغم على طاعتها والخضوع لسلطانها . أما الاعتقاد بأن القوة التى كان يمثلها الطغاة ومؤيدوهم قد وطأت الحق كما جاء به القرآن والسنة ، فقد جعل الكثيرين يقحمون أنفسهم فى غمار ثورة هائلة ؛ ويقال : إن خمسة آلاف قد لقوا مصرعهم فى حادثة تخريب المدينة ، كما عزف آخرون عن الدنيا أمثال الحسن البصرى ، وسلكوا سبيل الزهد بعد أن يئسوا من الإصلاح ، وقد كان لهذا الاتجاه عواقب خطيرة الشأن كما سنرى

* * *

لما رضى علىّ بعد « صِفّين » بالتحكيم فيما شجر بينه وبين معاوية من خلاف حول مشكلة الخلافة لأمه الكثيرون من جنده ورموه بخيانة العهد ، إذ كان — كما يعدّونه — الخليفة المنتخب عن جدارة واستحقاق ، فكان لزاماً عليه أن يستمسك بمنصبه السامى ويضحى من أجله بكل ثمين ، وفى طريق العودة إلى أمصارهم انسلخ الساخطون ويقدّر عددهم باثنى عشر ألف رجل ، وعسكروا فى بلدة تدعى « حرداء[1] » على مقربة من الكوفة وصاحوا جميعاً : « لا حكم إلا لله » ، وبذلك أظهروا اعتراضهم على التحكيم بتلك العبارة ولم يجزوه . وحاول علىّ — دون جدوى — أن يستميلهم إلى جانبه ، فأبوا عليه ذلك ، وانتخبوا خليفة من بينهم ، واجتمع فى « النهروان » أربعة آلاف من صناديدهم المغاوير ثائرين عليه ، فلما أشرف عليهم على وسط جموع جيشه اللجب تفرّق أكثرهم خوف لقائه . أما الباقون ،

---

(١) Wellhausen: Das Arabische Reichen und sein Sturz (p. 38).

(٢) وهم غالبية المسلمين ، ولاتباعهم سنة النبي وخلفائه أطلق عليهم فيما بعد اسم « أهل السنة » ولم يكونوا من الشيعة أو الخوارج ولكنهم =

= يشترطون وجوب انتخاب المجتمع الاسلامى لخليفته بنفسه وأن يكون من قريش ، وقد نشأت هذه الأحزاب كلها إثر النزاع الذى شجر بين على ومعاوية ، وكانت « الخلافة » علة خلقهم الأساسي

(١) راجع نص خطبة محمد بن على بن العباس فى المقدسى « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » طبعة دى جويه ، ج ٣ ص ٢٩٣ (المترجم)

فقد ثبتوا فى أماكنهم ، وآثروا الموت فى سبيل الذب عن إيمانهم ومعتقداتهم ، وأصبحت مكانة « النهروان » عند الخوارج بمنزلة « كربلاء » عند الشيعة الذين اعتبروهم منذ ذلك اليوم أعداء لهم . وقد ظلت ثورات الخوارج قائمة طوال صدر دولة بنى أمية ، إلا أن الحركة بلغت أقصى شدتها وعنفها فى سنوات الاضطراب التى حدثت عقب موت يزيد ، فانتشر « الأزارقة[1] » فى العراق وفى جنوبى فارس ، على حين استطاعت شعبة أخرى — وهى النجدية[2] — التسلط على جزء كبير من بلاد العرب وإخضاعها لنفوذها . ولقد ظل العُصاة زمناً طويلاً مقيمين على مناهضتهم ومقاومتهم لعبد الملك ، ولم يقلعوا عن التمرد ، حتى قام الحجاج سنة سبع وتسعين وستمائة ، فأخمد ثورتهم التى كانت تحت رئاسة زعيمهم شبيب

ويقال إن كلمة « خارجى » ترجع إلى آية فى القرآن[3] جاء فيها « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيرا وسَعَةً ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجرُهُ على الله وكان الله غفوراً رحيماً » وعلى ذلك فالمقصود من كلمة « خارجى » ذلك الذى يهجر مُقامه بين الكفار ابتغاء مرضاة الله ، وكذلك تتصل بلفظ « مهاجر » الذى أُطلق على المؤمنين من أهل مكة الذين صحبوا الرسول فى هجرته إلى المدينة[4]

وهناك لقب آخر يُكْنَوْن به ، وهو مُستمد من القرآن فى أصله ألا وهو « الشراة » أى الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لقاء الجنة كما جاء فى قوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقْتُلون ويُقْتَلون وعْداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوْفى بعَهده من الله فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذى بايَعْتُم به وذلك هو الفوز العظيم »[5] ، وأغلب الخوارج من الجند البدو الذين استقروا فى الكوفة والبصرة عقب الحروب الفارسية ولم تستطع الحياة المدنية أن تغير كثيراً من طبعهم الشموس وخُلقهم الجاف ، فلم يروا فى قريش من الفضائل ما يجعلها تذهب بالأمانة وحدها ، بل أرادوا اختيار رئيس من بين ظهرانيهم تجرى فى عروقه الدماء التى تجرى فى عروقهم ، ويطيعونه — كما جرت سنة البدو — ما دام قائماً خير قيام بأعباء ما عهد إليه به[1] . ومع ذلك فقد كان الدافع الرئيسى للحركة دافعاً دينياً ، ويمكن ردّه — كما أشار ڤلهوزن إلى القراء الذين ذهبوا إلى تهويل شأن المسألة الخاصة بإلزام على بالتفكير عن خطيئته الكبرى التى دفعه إلى إتيانها موقفهم المحزن الذى وقفوه حينذاك . وإنهم ليناهضون عليا لنفس السبب الذى دعاهم للوقوف ضد عثمان ، ففى كلا الموقفين كانوا يتعللون بالرجوع إلى أمر الله للقيام فى وجه الخليفة الجائر .

وإنه لمن المهم عند التعرض[2] لذكر مبادىء الخوارج الرئيسية عدم إغفال هذين الرأيين التاليين وهما

ا — جواز الخلافة لكل عربى حر[3]

ب — عزل كل خليفة لا يحسن القيام بأعباء سلطته أو قتله إذا حتمت الضرورة ذلك

وقد كتب المستورد بن علّيفة الخارجى قائد المؤمنين إلى سماك بن عُبَيْد وكان فى المدينة المنيقة رسالة[4] جاء فيها : « أما بعد فقد نقمنا على قومنا الجور فى الأحكام وتعطيل الحدود والاستئثار بالفىء ، وإنا ندعوك إلى كتاب الله عز وجل ، وسنة

(١) Brünnow : op. cit. p. 28.

(٢) Wellhausen : Die Religios - politischen Opposition sparteien im alten Islam (abh. der Königl. Gesellshaft der Wissenschaften zu Gottingen, 1901) p. 8 وهو يعارض رأى « برنو » فى أن أقدم الخوارج لم يكونوا أعراباً قحا ، بل الواقع أنهم برزوا بقية الجماعات الحربية فى الكوفة والبصرة فى نسيانهم تقاليدهم البدوية ، وهو يذهب إلى أن شدة ورع القراء وملازمتهم الصلاة وقيامهم آناء الليل وترديدهم لكتاب الله يتفق تماماً وما أثر عن الخوارج مما لا يختلف فى وصفه عن هذا الأسلوب . أضف إلى هذا أننا نجد بين أقدم الخوارج ذكراً لجماعة كانوا يتشحون ببرانس طويلة كانت إبان هذا الوقت سمة خاصة للزهد والتقشف ، وما ذكره الطبرى (جـ ١ ص ٣٣٣٠ س ٦) عن أبى مخنف من اعتباره الخوارج شعبة تفرعت عن القراء ، ثم يسمى قراء أصبحوا فيما بعد فى عداد الخوارج المتزمتين

(٣) لما انضم فيما بعد إلى صفوف الخوارج كثير من المسلمين غير العرب أصبح حق الخلافة مباحاً للأجانب أيضاً حتى العبيد

(٤) الطبرى ، جـ ٢ ص ٤٠ س ١٣ وما يليه

(١) سموا كذلك نسبة إلى زعيمهم نافع بن الأزرق [ويكنى بأبى راشد]

(٢) هم أتباع نجدة بن عامر الحنفى

(٣) سورة النساء ، آية ١٠٠

(٤) Brunnow : Die charidschiten unter den ersten Omayyaden (Leiden 1884) p. 128. وليس هناك ما يثبت أن الخوارج قد أطلقوا على أنفسهم هذا اللقب وعلى كل فهذا اللفظ يتضمن الخروج من المجتمع الاسلامى ، وربما أريد به للتنفير

(٥) سورة التوبة ، ٩ : ١١١

نبيه صلى الله عليه وسلم وولاية أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما والبراءة من عثمان وعلي لإحداثهما في الدين وتركهما حكم الكتاب» ومن هذا يتضح لنا أن دعوة الخوارج كانت تتلخص في التمسك بما نادى به الإسلام من المساواة والإخاء الذي لم يعد يُعمل به بل تلاشى تماماً . أما من الناحية النظرية فنرى أن جميع المسلمين المتمسكين بدينهم قد اتفقت رغبتهم على إعادته إلى نصابه ، وعلى إدانة الحكومة القائمة ، ولم يكونوا دون الخوارج في هذه الناحية وفي مَقْتِ تلك الدولة مقتاً شديداً تأصّل في حنايا النفوس ؛ أما الفارق الذي كان يميّز أفراد الحزب الأخير عن سواهم فهو صرامتهم الشديدة ودقتهم في تنفيذ مبادئهم ونشرها . وكان من آرائهم الجوهرية أنه يجب على الإمام أو زعيم المجتمع أن يحكم باسم الله ويقتفي كتابه ، وأنّ من سار على غير هذا الدرب فقد باع نصيبه في الحياة الأخرى ، وأن النجاة الأبدية وقف على اختيار خليفة النبيّ . وكانوا يعدّون المسلمين الذين يأبون سبّ عليّ وعثمان كفاراً مارقين ، كما كانوا يرون من الضروري على كل مؤمن صادق الإيمان أن يساهم في « الجهاد المقدس » ضد هؤلاء وأمثالهم ، وأن يقتلهم ويقتل زوجاتهم وأطفالهم أنّى تقفتهم

ولقد ارتدت هذه البادئ الفظة على العصاة الذين سرعان ما وجدوا أنفسهم مهدّدين بخطر الانقراض ، ومن ثم أخذت الآراء المتسلة تنتشر بينهم فأحلّ الأباضيون « أتباع عبد الله بن أباض » عيشهم بين المسلمين والاختلاط بهم في حدود التساهل المشترك بين الطرفين، ولم يكن التساهل في الواقع مناقضاً لما يريده الخوارج من إقامة مملكة الله على الأرض ، ولكن حطّم منطقهم العنيد، كل دستور يوضع؛ فهم يقولون - كما لاحظ عليّ - « لا إمارة ولكن لا بد من إمارة برة أو فاجرة[1] » ومع ذلك فقد كانوا يحاربون بإيمان ثابت وعقيدة خالصة في سبيل مرمى شريف ،

ولم تكن لهم غاية دنيوية يسعون من أجلها على نقيض الأحزاب السياسية الأخرى

تكلم الشهرستاني عن الإثنى عشر ألفا الأوائل الذين ثاروا ضد عليّ فوصفهم بقوله « إنهم أهل صيام وصلاة[1] » . وكان القرآن حكَمهم في حياتهم والمهيمن على خواطرهم ، حتى إن تاريخ اعتقادهم الأول ، وتاريخ المضطهدين والشهداء والمؤمنين ... كل ذلك غدا مأساة حقيقية واقعة كانوا هم أنفسهم أبطالها الذين قاموا بتمثيلها ، كما أن خوفهم من الجحيم أثار فيهم حماسة صادقة وغيرة على إحقاق العدل ، كما امتحنوا اعتقادهم الشخصي في دقة وخبروا إيمان جيرانهم . وويل للذين كانوا يجدونه ضعيف الإيمان ، فهناك خطوة واحدة تقرب المخطئ من الإسلام ، وعلى الرغم من أنه يمكن التجاوز عن الزلة وغفرانها بالتوبة الصادقة إلا أنهم كانوا يُسلكون أيّ مسلم ارتكب إحدى الكبائر ولو مرة واحدة في زمرة الكفّار المخلدين في النار، أو كان ذلك على الأقل في نظر الخوارج المؤمنين

محمد عبد

(١) الشهرستاني : شرحه ج ١ ص ٨٦ س ٣ من أسفل

(١) الشهرستاني : الملل والنحل (طبعة Cureton) ج ١ ص ٨٨ س ١٢

الفرصة السنوية العظيمة بعد الجرد

في محلات

سليم وسمعان صيدناوي وشركاهم ليمتد

ابتداء من الاثنين ٢ فبراير سنة ١٩٤٢

تؤكد لحضرات زبائننا الكرام أن البضائع سترد لنا بطريقة متواصلة فنرجو منهم أن يقتصروا في مشترياتهم على ما هم في حاجة إليه حالا وذلك كي نستطيع تلبية طلبات الجميع وإرضائهم .